موقف قدامى النقاد من شعر المحدثين

كما تصوره الدراسات الحديثة

ونعود إلى تفصيل دعوى تعصب قدامى النقاد على شعر المحدثين ، وهى الدعوى التى دأبت الدراسات الحديثة على ترديدها مصورةً موقف أولئك النقاد – من نحاة ولغويين ورواة – من شعر المحدثين ومن حركات التجديد فى الشعر العربى ، على أنه موقف التعصب لقديم ضد كل ما هو جديد ، وأن أولئك النقاد قد ظلوا – حتى بعد (تسامحهم) فى رواية شعر المحدثين – لا يقبلون منه إلا ماكان سائراً فى ركاب القديم فى أسلوبه وبنائه الفنى . . وقد تمادت الدراسات الحديثة فى تثبيت هذا التصور إلى حد القول بأنه لم يكن لأولئك النقاد من حيثيات فى رفض شعر المحدثين وقبول الشعر القديم سوى عامل الزمن : فهم قد رفضوا الحديث لمجرد حداثته ، وقبلوا القديم لمجرد قدمه .

وراح أصحاب هذه الدراسات يحملون أولئك النقاد مسئولية كل ما تصوروا أنه نتيجة لنزعة محافظة فى الشعر العربى ، كما راحوا يحشدون النصوص التى تؤيد هذا التصور ، وهى وإن تكن نصوصاً معدودة واردة فى جميع الأبحاث بلا استثناء تقريباً ، فإنها تؤكد إخلال هذه

الأبحاث بشروط القراءة الصحيحة للازمة لفهم النقد العربى القديم على حقيقته .

ويمكن التأكد من هذا باستعراض نماذج من تناول الدارسين المحدثين لهذه القضية ، فقد اكتفى هؤلاء الدارسون ببضعة نصوص غامضة ، قد يحمل بعضها الدلالة على (احترام) بعض النقاد للقديم ، دون غض من شعر المحدثين ، أو يحمل بعضها الإشارة إلى مآخذ معينة ليست مقصورة على شعر المحدثين ، وقد لا يشير بعضها إلى شيء على الإطلاق .

لقد أشار نكلسون (R.A.Nicholson) مثلاً – فى كتابه (التاريخ الأدبى للعرب) الذى صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٠٧ إلى أن متقدمى اللغويين والرواة قد حكموا فى تقويم الشعر مقياساً زمنيا ، أساسه أن التقدم فى الزمن دليل على التفوق الشعرى ، بينما يدل التأخر على الانحطاط ، وأن الحد الفاصل هو ظهور الإسلام ، ويؤكد هذا بإشارته – فى بعض تعليقاته – إلى عبارة أبى عمرو بن العلاء التى أعلن فيها أنه ما كان ليفضل أحداً على الأخطل – الشاعر الإسلامى المعروف – لو أنه كان قد أدرك يوماً واحداً من الجاهلية . وإذا كان نكلسون يجعل من ابن قتيبة أول ناقد يسوى بين المحدث والقديم ، ويقبل الشعر على أساس مافيه من ميزات لاعلى أساس عصره ، أو – كما صرح فى موضع آخر – أن ذلك الناقد هو الذى حث على أن يُقوِّم المحدثون على أساس جمالى

وليس على أسس تاريخية أو لغوية . . فإن هذا لا يعني أكثر من أنه يلحق تهمة التعصب ضد شعر المحدثين بكل النقاد فيما قبل ابن قتيبة .

وهذا نفسه ما ذهب إليه الأستاذ الدكتور طه حسين في مجموعة من المقالات الأسبوعية نشرها في أعوام ١٩٢٢ - ١٩٢٤ في جريدة (السياسة) جمعها موضوع واحد هو (القدماء والمحدثون) وقد أكد في هذه المقالات أن العرب كانوا أحراراً في الحياة المادية . . محافظين في الحياة الأدبية ، وأن الشعراء الذين كانوا يجرؤون على أن ينكروا هذه المحافظة ويحاولوا تحرير الشعر قليلاً أو كثيراً ، كانوا يتعرضون لسخط الأئمة وعلماء الدين ، وأن أولئك الأئمة والعلماء كانوا بطبيعة منازلهم الدينية حريصين على القديم أعداء لكل جديد ، كما كانوا أيضاً - بحكم منزلتهم اللغوية - مضطرين إلى أن يحتفظوا لا بقواعد اللغة وأصولها فحسب ، بل بألفاظها وأساليبها أيضاً ، مما جعل موقف الشعراء المجددين حرجاً - تماماً كموقف الفلاسفة المجددين - وقد تعرض هؤلاء وأولئك للحبس والضرب والنفي ، وغير ذلك من ضروب الاضطهاد .

وقسم المرحوم الأستاذ طه إبراهيم قدامى النقاد إلى فريقين : المناصرين للجديد والمتعصبين للقديم ، وقال : إن أخص الناس الذين كانوا يتعصبون للقدماء ولا يكادون يقرون بإحسان لمحدث هم النحويون واللغويون ، ومثل لأولئك بأبي عمرو بن العلاء - الذي وصفه بشدة التعصب للجاهليين بحيث لم يكن يرى الشعر إلا لهم ، وأن من بعدهم

ليسوا بشيء ، وأنه غالى فى ذلك مغالاة صرفته إلى النظر إلى المتقدم بعين الجلالة لا لسبب إلا لأنه متقدم ، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لا لسبب إلا لأنه متأخر ، وحتى أتمام الموازنة على العصر لا على الشعر ، ووصف كبار الشعراء الإسلاميين – أمثال الفرزدق وجرير والأخطل – بأنهم (محدثون) ، وصرح بما يفيد أنه لا يروى أشعارهم . ويقول المؤلف : إن من كان هذا شأنه مع الإسلاميين فأحرى به ألا يسلّم بفضل المولد – يعنى الشعراء الجدد ممن دخل فى نسبهم عنصر أجنبى – ويؤكد أن النقاد اللغويين قد استمروا فى القرنين الثانى والثالث على نفس النظرة ، زاهدين فى الشعر المحدث ، مولين وجوههم عنه ، مؤثرين عليه القديم .

وفى سنة ١٩٣٩ كتب المرحوم الأستاذ أحمد أمين مقالاً بعنوان (جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى) جاء فيه أن الشعر العباسى لم يساير الحياة الجديدة التى أخذ بها ذلك العصر ، وأن السبب فى هذا هو وجود فريق من اللغويين – أمثال الأصمعى وأبى عمرو بن العلاء وابن الأعرابى – تزعم الدعوة إلى القديم ، خاصة الشعر الجاهلى ، وأن الصراع بين ذلك الفريق وبين دعاة التجديد من الشعراء – أمثال أبى نواس – قد انتهى بانتصار لدعاة إلى القديم ، بحيث ساد تقديس الشعر الجاهلى وكل شىء جاهلى ، مما شل الأدب العربى شللاً فظيعاً وأثر فى انعدام حركة التجديد فى الشعر وعدم مسايرته لروح العصر وانحباسه فى قوالب تقليدية لا يتعداها .

وقد استمر على نفس الرأى فى كتابه (النقد الأدبى) ورأى أنه كان من أثر فريق المحافظين «تخوف كثير من الشعراء أن يخرجوا على التقاليد القديمة فيثيروا سخطهم ونقدهم».

وسار المرحوم الدكتور محمد مندور فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب) فى نفس الاتجاه، وأكد حرص علماء اللغة على الشعر القديم، إذ كانوا يتخذونه حجة فى تفسير القرآن والحديث، وقال: إن اتصال الشعر بالدين على هذا النحو كان السبب الأكبر فى الانتصار للقديم، وإن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل امتد إلى الشعراء أنفسهم، إذ لم يروا بدًّا- لكى يُروَى عنهم شعرُهُم- من أن يحاكوا الشعر القديم، لا فى أسلوبه فحسب، بل فى بنائه الفنى. من هنا انتهى الأمر بالشعراء العرب- فيما يقول- إلى أن حبسوا أنفسهم فى تفاصيل الصور والمعانى القديمة.

وأكد المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة فى كتابه (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) أن العلماء باللغة والنحو ورواية الأدب ممن يعتمدون على القديم قد «وقفوا أمام المحدثين رصداً، يعدون عليهم أنفاسهم، ويميزون بين الحار منها والبارد، فإذا أحسوا بنفس جديد خنقوه فى أول تردده مخافة أن تستطيل به الحياة» ويقول: إن «مثل هذا الظلم قد وقع فعلاً، وعانى منه الشعراء كثيراً.. وأثر تأثيره بالرجعة إلى الوراء»..

من هنا لم يقف الشعراء المحدثون عند حد ما يمليه الزمن والمدنية الحديثة

التى عاشوها ، وإنما جاروا- مضطرين أو متعمدين- الرواة وعلماء اللغة الذين كانوا يعتزون بالقديم .

كذلك ذهب الأستاذ الدكتور شكرى عياد فى دراسته عن أثر الترجمة التى قام بها العرب لكتابة الشعر الأرسطى على البلاغة العربية . . إلى أن نشأة النقد العربى الخالص- كما يمثلها كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام- كانت شديدة الاتصال بعلوم العربية ، وأنه لهذا السبب قصر أعلام ذلك النقد- من الرواة واللغويين- عنايتهم على الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، ولم ينظروا فى شىء من شعر المحدثين ، ويقول : إن النقد العربى «ألزم المحدثين منهج القصيدة العربية» وأنه كان نقدًا جزئيًّا ذاتيًّا ، وأنه حين قرر قانونًا عامًّا «كان هذا القانون هو اتباع الأقدمين» .

وعرض الدكتور محمد مصطفى هدارة ، فى بحثه عن (مشكلة السرقات فى النقد العربى) لموضوع الخصومة بين القدماء والمحدثين ، وأشار إلى انقسام النقاد والأدباء إلى فريقين ، أحدهما يدافع عن القديم ويتعصب له ، والآخر يدافع عن الحديث ويتعصب له ، ومثل الفريق الأول رواة الشعر وعلماؤه ، الذين كانوا الفئة المهيمنة على أذواق الناس وفهمهم لطبيعة الشعر ، والذين حاولوا الانتقاد من شعر المحدثين ما أمكن .

هذه نماذج- فقط- من أقوال الدارسين المحدثين فى اتهامهم النقد العربى القديم ابتداء من أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثانى- وبالذات فى بيئة الرواة واللغويين والنحاة- الذين مثلوا نقاد الشعر فى

تلك الفترة– بالتعصب ضد شعر المحدثين ورفضه ، وهناك نماذج أخرى ، كثيرة تسير فى نفس الخط لا داعى لذكرها طلباً للاختصار .

* * *

إن السؤال الذى يفرض نفسه– منطقيًا– بعد سماع هذه الآراء . . يتعلق حتماً بالمبررات– أو الأسباب– التى استند إليها أصحاب هذه الدعوى– أعنى دعوى تعصب النقد العربى القديم ضد شعر المحدثين فى العصر العباسى ، خاصة أصحاب نزعات التجديد من بينهم . وهنا نجد تعلق هؤلاء الدارسين بعدد قليل من النصوص والتصريحات والأحكام التى تنسب إلى الرعيل الأول من النقاد ، فهم ينسبون إلى أبى عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) قوله عن الشاعر الإسلامى الأخطل : إنه لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية ما فضل عليه أحداً ، وأنه لم يكن يحتج بأشعار الإسلاميين ، وأنه سَمَّاهم (محدثين) ، وأنه لهذا السبب– أى لحداثتهم– لم يكن يروى أشعارهم ، وقال عنهم « ما كان من حَسَنٍ فقد سُبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج ، وقطعة مَسِيحٍ وقطعة نِطْع » – أى أن مستوى شعرهم فى غاية التفاوت – وهم يوردون قصة لخلف الأحمر (ت ١٨٠ هـ) مع الشاعر ابن مُنَاذِر الذى طلب من خلف أن يقارن بين شعره وبين أشعار الجاهلين ، وقصة أخرى مماثلة لنفس الشاعر مع أبى عبيدة (ت ٢٠٩ هـ) وبالمثل يذكرون قصة إعجاب الأعرابى

(ت ٣٢١ هـ) بأرجوزة لأبي تمام – على أنها لشاعر من هذيل – وأمره بكتابتها ، ثم تزيقه لها حين علم أنها لأبي تمام . ويحكون عن الأصمعي (ت ٢١٥ هـ) موقفاً مشابهاً مع بيتين لإسحاق الموصلي ، فقد رجع الأصمعي عن استحسانه للبيتين حين علم أنهما لإسحق . كما يذكرون إعجابه الشديد بالشاعر ابن هرمة ، وتصريحه بأنه ما يؤخره عن الفحول – عنده – إلاّ قرب عهده .

وعلى نحو من وصف أبي عمرو لشعر المحدثين بالتفاوت في المستوى ، يذكرون – بالمثل – قول ابن الأعرابي عن تلك الأشعار : إنها مثل الريحان يُشَمُّ يوماً ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً ، وكذلك ينقلون قوله ، وقد سئل عن بعض شعر أبي نواس : أما هذا من أحسن الشعر؟ فقال : بلى ، ولكن القديم أحب إليّ .

وهناك أخبار أخرى قليلة نحو ما ينسب إلى أبي رياش القيسي في تعصبه على أبي تمام والبحتري ، ومن هذه الأخبار ما ينسب إلى إسحاق الموصلي نفسه ، وأنه – وهو الشاعر المحدث – كان يفضل شعر القدماء على شعر المحدثين . .